سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

شرح

فصل في

أسباب شرح الصُّدور

من «زاد المعاد في هدي خير العباد» للعلَّامة ابن القيِّم

الشيخ محمد أمان الجامي

-رحمه الله تعالىٰ-

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ رحمه الله لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد..

يقول العلَّامة ابن القيم رحمه الله تعالىٰ:

فصل

في أسباب شرح الصُّدور

وحصولها علىٰ الكمال له ﷺ

فأعظم أسباب شرح الصَّدر: التَّوحيدُ وعلىٰ حسَب كماله، وقوَّته، وزيادته يكونُ انشراحُ صدر صاحبه، قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[2].

فالهُدىٰ والتَّوحيدُ مِن أعظم أسبابِ شرح الصَّدر، والشِّركُ والضَّلال مِن أعظم أسبابِ ضيقِ الصَّدرِ وانحراجِه.

ومنها: النُّورُ الذي يقذِفُه الله في قلب العبد، وهو نورُ الإيمان، فإنه يشرَحُ الصدر ويُوسِّعه، ويُفْرِحُ القلبَ. فإذا فُقِدَ هٰذا النور من قلب العبد، ضاقَ وحَرِجَ، وصار في أضيق سجنٍ وأصعبه.

---

(١) سورة: الزمر، الآية (٢٢).

(٢) سورة: الأنعام، الآية (١٢٥).

وقد روىٰ التِّرمذي في «جامعه»[(١)] عن النبي ﷺ، أنه قال: «إذا دَخَلَ النُّور القلبَ، انْفَسَحَ وانشرحَ». قالوا: وما عَلاَمَةُ ذَلِكَ يَا رسُولَ اللهِ؟ قال: «الإنَابَةُ إلىٰ دارِ الخُلُودِ، والتَجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، والاسْتِعْدادُ للمَوْتِ قَبْلَ نُزوله». فيُصيبَ العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هٰذا النُّور، وكذلك النُّورُ الحِسِّي، والظُّلمةُ الحِسِّية، هٰذه تشرحُ الصَّدر، وهٰذه تُضيِّقه.

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه.

وبعد..

موضوع درسنا -الموضوع العام- هو الكلام في أحكام الصِّيام؛ ولكن استحسنا واخترنا هـٰذا الكتاب زاد المعاد في هدي خير العباد للعلَّامة ابن القيم ليكون هو كتابَ درسنا في أحكام الصِّيام في هـٰذه الأيام المباركة المقبلة، وبين يدي أحكام الصيام قدَّم العلامة ابن القيم بحثًا مهمًّا جدًّا في أسباب شرح الصُّدور وحصول ذلك للنَّبي ﷺ علىٰ وجه الكمال -الكمال البشري-، لذلك نبدأ بهـٰذه الأسباب، ولعلنا نبدأ في معالجة أنفسنا قبل أن نبدأ في الصيام، ونُعدّ أنفسنا لاستقبال صيام شهر رمضان وبالله التوفيق.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: (فصل في أسباب شرح الصُّدور وحصولها علىٰ الكمال له ﷺ)، فيقول: (فأعظم أسباب شرح الصّدر: التَّوحيدُ وعلىٰ حسَب كماله، وقوته، وزيادته يكونُ انشراحُ صدر صاحبه).

التَّوحيد يضعف ويقوىٰ في نفس العبد، يزيد وينقص؛ لأنَّ أصل التَّوحيد هو الإيمان؛ الإيمان بالله -تعالىٰ- وإفراده بالعبادة وتوحيده في أسمائه وصفاته بعد توحيده في ربوبيته، والنَّاس يتفاوتون في هـٰذا التَّوحيد، وعلىٰ حسب كمال هـٰذا التَّوحيد وضعف هـٰذا التوحيد وقوَّته وزيادته يكون انشراح صدر

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»(٤/ ٣١١) من حديث ابن مسعود، وابن جرير في «تفسيره» في عدد من المواضع وضعفه الشَّيخ الألباني في «الضَّعيفة» برقم (٩٦٥)، وقال: وجملة القول أن هـٰذا الحديث ضعيف لا يطمئن القلب لثبوته عن رسول الله ﷺ لشدة الضعف الذي في جميع طرقه، وبعضها أشد ضعفا من بعض، فليس فيها ما ضعفه يسير، يمكن أن ينجبر، خلافا لما ذهب إليه ابن كثير، وإن قلده في ذلك جماعة ممن ألفوا في التفسير كالشَّوكاني في «فتح القدير» وصديق حسن خان في «فتح البيان» وجزم الآلوسي في «روح المعاني» بنسبته إليه ﷺ ومن قبله ابن القيم في «الفوائد» وعزاه للترمذي فجاء بوهم آخر والعصمة لله وحده.

صاحبه، وهٰذا شيء يعلمه الإنسان من نفسه.

زيادة الإيمان ونقص الإيمان وقوَّة الإيمان وضعف الإيمان، وقوة توحيدك وضعفه، لو درس الإنسان حول نفسه في كل لحظة يدرك، هٰذه أعراض تعتري كلَّ إنسان؛ لأنَّ القوّة والضَّعف لهما أسباب.

أسباب ضَعف التَّوحيد، ونُقصان التَّوحيد، وضَعف الإيمان ونقصان الإيمان: المعاصي والإعراض عن الله سبحانه وتعالىٰ.

وأسباب قوّة الإيمان وقوة التّوحيد وزيادة الإيمان وزيادة التَّوحيد: الطاعة والامتثال، إذا كانت الطاعة علىٰ وجه ما جاء به رسول الله ﷺ.

نحن نذكر مع قوَّة التَّوحيد وضعف التَّوحيد قوَّة الإيمان وضعف الإيمان؛ لأنَّ الإيمان تلك الحقيقة التي في النَّفس، حقيقتها تعظيم الرَّبِّ ﷻ، ومحبة الله وتعظيم أوامره، هٰذه الأمور تُنتج إفراد الله -تعالىٰ- بالعبادة وعدم الالتفات إلىٰ سواه، وإفراده في أسمائه وصفاته، وإفراده في ربوبيته، وذلك هو الإيمان.

(قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[1]) علىٰ نور من ربه من صدر الله صدره للإسلام، علىٰ نور من ربه ﷻ قد نوّر الله قلبه، يعبد الله كأنه يرىٰ الله من شدَّة المراقبة، ويُرزق الأنس بالله ﷻ، فإذا اعترضته أعراض بشرية لابدّ منها أحسَّ بالوحشة وفرّ، إلىٰ من؟ إلىٰ الله، يفرُّ إلىٰ الله ليخلِّصه من شرِّ نفسه وهواه.

(**وقال تعالىٰ**: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[2]) كالذي يحاول الصُّعود ويتكلّف الصُّعود في السماء، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ من يريد الله هدايته بالهدايتين:

- هداية الإرشاد والدلالة والبيان.

---

(١) سورة: الزمر، الآية (٢٢).

(٢) سورة: الأنعام، الآية (١٢٥).

- وهداية التوفيق والإلهام.

يشرح صدره للإسلام يحب الإسلام، ويفرح بالإسلام، الإسلام الذي هو الاستسلام والانقياد، يرىٰ من نفسه محبّة الإسلام، ومحبة الالتزام ومحبة والاستقامة، إذا رأىٰ العبد من نفسه هـٰذه المعاني معناه إنَّ الله شرح صدره للإسلام وهداه، وهـٰذه هداية الإرشاد والدَّلالة والبيان حصلت.

تبقىٰ هداية التَّوفيق الإلهام بأن يوفقه للعمل الصالح والإخلاص فيه ومتابعة رسوله –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–، إذ لا قَبول للأعمال إلا بالأمرين معًا:

إخلاص العمل لله تعالىٰ بحيث لا يشوبه شيء من الرِّياء، وحب الشهرة والظهور والبروز؛ ولكن يريد وجه الله وحده.

ويكون ذلك العمل وفْق ما جاء به رسول الله ﷺ، يوفقه إلىٰ ذلك.

أما من يريد اللهُ أن يضلَّه وأمسك عنه التوفيق وخذله ولم يُعنه علىٰ نفسه وشيطانه؛ فلم يُعنه إعانةً تجعله يحبُّ الله ورسوله وطاعته، ويجعل صدْره ضيِّقا حرجا كأنّما يصعَّد في السَّماء، يرىٰ في امتثال المأمورات واجتناب المنهيات صعوبةً شديدة، لا يرىٰ من نفسه الانشراح ليمتثل ويعمل ولينتهي عمَّا نُهي عنه؛ بل يرىٰ هـٰذه قيود صعبة تقيِّد وتقضي علىٰ حريته وإنسانيته، يريد أن ينطلق، هـٰذا هو الضَّياع، فإذا رأىٰ الإنسان من نفسه هـٰذا المعنىٰ ووقف هـٰذا الموقف عليه أن يبادر بالفرار إلىٰ الله؛ ليخلِّصه وإن يوفقه الله ﷻ في هـٰذه الظروف بالفرار إليه يوفقه توفيقًا، وإن لم يوفقه ضلّ وضاع.

هكذا ثبت في علم الله ﷻ، ومكتوب عند من يوفَّق ويُلهم ويعمل ويشرح صدره للإسلام ويحب الإسلام وأهل الإسلام، ومن هو بالعكس، كلُّ ذلك سابق في علم الله تعالىٰ وكتابه السَّابق، بيد أننا لا نعلم هـٰذا السّر، مطالبون بظاهر الشريعة، علينا أن نطلب من الله سبحانه وتعالىٰ الهداية في كلِّ لحظة، إذ قد يكون من الأسباب بأن يخلِّص الله عبده مما تورّط فيه الإكثار من الدعاء واللجوء إلىٰ الله كما سيأتي في أسباب انشراح الصَّدر.

يقول الشيخ العلامة ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: (**الهُدىٰ والتوحيدُ مِن أعظم أسبابِ شرح الصَّدر**) الْهُدىٰ الذي هو ضد الضلالة، الذي هو صحة المتابعة، الهدىٰ ضد الضلال، والتوحيد ضد الشرك

بنوعيه الشرك الأكبر والأصغر، من رزقه الله الهدىٰ والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، انشرح صدره، إذا وفقه الله فوحّد الله في عبادته في ربوبيته، توحيد الربوبية الذي هو توحيد الفطرة والعدل، وجاء الشرع مؤيِّدا بذلك ثم أتبع ذلك بتوحيد العبادة؛ لأنَّ توحيد الرُّبوبية وحده لا يجزي ولا ينفع، ولو وحّد الإنسان ربَّ العالمين بأنه وحده الخالق الرازق، وهو المعطي المناع وهو النَّافع الضَّار وهو القادر علىٰ اختراع كل شيء، لا شريك له في كل ذلك، لو وحّده في هٰذا التَّوحيد لكن لم يوحده في عبادته؛ يدعو معه غيره ويستغيث بغيره ويخاف خوفًا غير الطبيعي من غيره، ويحب غيره محبة غير طبيعية، ويساوي بينه وبين عبد من عباده في علم الغيب والتَّصرف في الكون، لو وحّد الله في ربوبيته علىٰ ما ذكرنا؛ ولكن تورَّط في هٰذه الأنواع -أنواع الشرك الأكبر- ما نفع ذلك التوحيد أبدا؛ بل لا يدخل بذلك التوحيد في الإسلام فضلًا أن يكون من أولياء الله تعالىٰ؛ لأنَّ ذلك التوحيد توحيد الرّبوبية توحيد كما قلنا غير مرة يجهله أبو جهل نفسه، أبو جهل وأمثاله يوحدون الله في ربوبيته، وإنما حُكم عليهم بالشرك والكفر واستُحلت أموالهم ودماؤهم لأنّهم لم يوحدوا الله في عبادته أشركوا بالله في العبادة.

وهٰذا شيء يجب أن يعلمه صغار طلبة العلم قبل كبار طلبة العلم؛ بل جميع المسلمين يجب أن يعلموا لابد من الجمع بين التَّوحيدين، توحيد الرُّبوبية وتوحيد العبادة.

إذا تَمّ للمرء هٰذا التوحيد ثم حصل له الهدىٰ اتباع هدي رسول الله ﷺ بذلك يحصل له انشراح صدره أعظم انشراح، والشرك كما مثّلنا، والضلال كما أشرنا من أعظم أسباب ضيق الصَّدر وانحرافه، من علَّق قلبه بغير الله -تعالىٰ- يخاف من هٰذا ويحذر من ذاك ويرجو زيدا ويخاف عمرا ويحلف بخالد، وهكذا موزّع بين عباد الله، يخاف من الجنّ والإنس، لا يوحّد الله بالمحبة والرّغبة والرَّهبة، ويتَّبع كلّ ما سمع، لا يبحث عن هدي رسول الله ﷺ ليتّبعه في صلاته في جميع عباداته لا يتقيّد بالهدي النّبوي.

من أُبتلي بهٰذا الداء أُصيب بأعظم أسباب ضيق الصدر والانحراف فإنه في حرج، في ضيق؛ لأن محبته موزعة وخوفه موزع واتباعه موزّع، لم يوحّد اتجاهه في سيْره إلىٰ الله؛ لذلك فهو دائمًا في ضيق وفي حرج، نسأل الله لنا ولكم السلامة.

ويقول العلامة ابن القيم: (ومنها) من أسباب انشراح الصَّدر (النورُ الذي يقذِفُه الله ﷻ في قلب العبد)

هٰذا النُّور نور الإيمان، هٰذا النُّور إنَّما يحصل إذا قوي الإيمان، الإيمان له نور، وله طعم، وله لذَّة، يتذوّق الإنسان طعم الإيمان، ويجد في نفسه لذَّة الإيمان، وينوَّر قلبه بنور الإيمان، كلُّ ذلك إذا صحّ إيمانُه، لا الإيمان المدَّعىٰ؛ بل الإيمان الحقيقي الذي علم الله منه إيمانه.

وهٰذه الأمور بالنِّسبة لنا نحن نحكي؛ ولٰكنّ ابن القيم يتحدث حديث إنسان مجرِّب حاسّ يحسُّ هٰذا المعنىٰ في نفسه رحمه الله.

(**فإنه يشرَحُ الصدر**) هٰذا النور، (**ويُوسِّعه**)، ويرىٰ أنّ ما عنده ليس بشيء، لا يرىٰ زخارف الدنيا ونعيمها وعذابها ومشاكلها، كل ذلك لا يراه شيئا؛ لأنَّه صبر بنور الإيمان.

وهٰذا النُّور يربطه بالله ﷻ (**فإنه يشرَحُ الصّدر ويُوسِّعه، ويُفْرِحُ القلبَ**) دائمًا فيما بينه وبين الله في فرح وسُرور، وإن كان فيما يبدو للناس في ضيق، قد يكون في فقر، في ضيق، وفي تسلُّط الأعداء عليه، كما هو الحاصل لكثير من المصلحين من الأنبياء وورثة الأنبياء، كثيرًا ما يمتحنهم الله ﷻ بأن يسلط عليهم أعداءهم؛ لكن في الوقت نفسه يرون في أنفسهم محبّة لله وسرورًا؛ لذلك يحكىٰ عن شيخه العلامة الإمام ابن تيمية عندما كان يعذَّب وينفىٰ ويسجن يقول: جنتي في صدري، ماذا يعمل أعدائي؟ نفيي سياحة، سجني خلوة، وقتلي شهادة. وهل يعمل الأعداء أكثر من هٰذا؟ القسمة ثلاثية ليس هناك شيء آخر، إمّا أن يُنفىٰ، وإمّا أن يُسجن، وإمّا أن يقتل وفي الحالات كلِّها هو في جنته.

يقول هو أو غيره من أصحاب التَّحقيق: لا يدخل العبد جنّة الآخرة حتىٰ يدخل جنّة الدُّنيا. أي حتىٰ يجد لذة في طاعة الله -تعالىٰ- وعبادته، والأنس به، وانشراح صدره وتتحوَّل جميع المشاق عنده كلا شيء يرىٰ نفسه وكأنه في الجنة، وهو في الدُّنيا بعد ذلك يدخل الجنة الآخرة. والله المستعان.

يقول العلامة ابن القيم: (**فإذا فُقِدَ هٰذا النُّور من قلب العبد، ضاقَ وحَرِجَ، وصار في أضيق سجنٍ وأصعبه.**) قد يكون فيما يبدو للنّاس في نعيم، في راحة؛ لٰكن فيما بينه وبين الله إذا فَقَد ذلك النُّور ضاق صدره، وهٰذه المعاني كُلِّها فيما بين العبد وبين الرّب.

وأمّا ما يحصل للإنسان من مُتَع الدُّنيا، هٰذه المُتع قد تحصل لأعداء الله للكفار ما لا يحصل لأولياء الله تعالىٰ.

فإذن ليست هي المعيار، التنعُّم بنعيم الدُّنيا، وأن يعيش الإنسان في بحبوحة من العيش وفي سعة من الحياة وفي ضيق، كلُّ ذلك ليس بمعيار، وليس هو محل الحديث، وإنَّما القضية قضية خاصة بين العبد وبين ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(وقد روىٰ التِّرمذي في جامعه عن النبي ﷺ، أنه قال: «إذا دَخَلَ النُّور القلبَ، انْفَسَحَ وانشرحَ») يعرف ذلك الإنسان من نفسه، وقد يعرف ذلك غيره بالقرائن وبتصرُّفات هٰذا العبد، (قالوا: وما عَلاَمَةُ ذَلِكَ يَا رسُولَ اللهِ؟ قال: «الإنَابَةُ إلىٰ دارِ الخُلُودِ») هٰذه العلامة التي يعرف بها الإنسان، إذا رأيت الإنسان ذا إنابة وتوجُّه وإكثار من التوبة وإقبال علىٰ الله («والتَجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ») وأنّ مُتع الحياة لا تضرُّه لأنها دار الغُرور، يأخذ منها زادا لآخرته، ما يحصل له من متاع الدُّنيا يستعمل زادا لآخرته، لا ينخدع بها، لا تشغله عن عبادة الله وعن طاعة ربه سبحانه، وعن اتّباع نبيه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- («والاسْتِعْدادُ للمَوْتِ قَبْلَ نُزولِه») كيف يستعد الإنسان للموت؟ الاستعداد للموت، أكثَرَ أهل العلم من ذكر الاستعداد للموت في مؤلفاتهم وفي كتبهم؛ ذلك بالتَّوبة والإنابة والإكثار من مراجعة صفحات أعمارك الماضية ماذا عملتَ؟ والإقبال علىٰ الله وانكسار القلب والحُزن؛ لأنَّك لا تدري بما يُختم لك، تُرزق الخوفَ مع السُّرور والانشراح؛ لابدَّ أن يجمع العبد بين الخوف وبين الرجاء، لا يغلب عليه الخوف حتىٰ يصل إلىٰ درجة القُنوت واليأس، ولا يغلب عليه الرَّجاء حتىٰ يركبه الغُرور؛ ولكنه يسير إلىٰ الله بين الخوف والرَّجاء، يلازم هٰذه الخطّة وهٰذا الطريق بهٰذا يستعدّ للموت.

بالمناسبة: هٰذا الأثر أو هٰذا الحديث ذكر المحققون للكتاب أن ما ذكره ابن القيم بأنه ما رواه الترمذي -يقول-؛ جعل ذلك وهما لأنَّ الترمذي لم يذكره، معناه راجع المحققون الترمذي في المظان فلم يجدوه وحكموا بهٰذا الحكم، وفي النهاية بعد التتبع فإن الحافظ ابن كثير أثبت هٰذا الحديث إذ هو ثابت سواء ذُكر في الترمذي أو لم يذكر، أما الذي يهمنا ثبوته، فجزاهم الله خيرا الذين حققوا ونقلوا إلينا هٰذه المعلومات.

يقول العلامة ابن القيم: (فيُصيبَ العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هٰذا النُّور) وكما تقدم الناس تتفاوت بقوة الإيمان وضعف الإيمان؛ وذلك حسب قوة هٰذا النور وضعف هٰذا النّور، وهٰذا أمر

معنوي يدركه الإنسان من نفسه ويدركه غيره من بالعلامات التي ذكرها وجاء ذكرها في الحديث.

وكذلك النّور الحسِّي يريد أن يضرب المثل لذلك بالنور الحسي، (**النُّورُ الحِسِّي، والظُّلمةُ الحِسِّية، هٰذه تشرحُ الصَّدر، وهٰذه تُضيِّقه**)؛ إذا كانت في مكان منوَّر كهٰذا المكان وأنت بحاجة إلىٰ النّور لتسير لتقرأ لتستفيد فينشرح صدرك بهٰذا النور الكهربائي الحسي، وإذا كنت في غرفة مظلمة يضيق صدرك، كذلك النُّور المعنوي بالنِّسبة للإنسان، من رُزق النُّور نور الإيمان انشرح صدرُه وفرح ورُزق السُّرور بالله ﷻ وبسعادته والعكس بالعكس.

ثم قال رحمه الله:

ومنها: العلم، فإنه يشرح الصَّدر، ويوسِّعه حتىٰ يكون أَوسعَ من الدّنيا، والجهلُ يورثه الضِّيق والحَصْر والحبس، فكلما اتَّسع علمُ العبد انشرح صدره واتَّسع، وليس هٰذا لكلِّ عِلم، بل للعلم الموروث عن الرَّسول ﷺ وهو العلمُ النَّافع، فأهلُه أشرحُ النَّاس صدرًا، وأوسعهم قلوبًا، وأحسُنهم أخلاقًا، وأطيبُهم عيشًا.

ومنها: الإنابة إلىٰ الله ﷻ، ومحبتُه بكلِّ القلب، والإقبالُ عليه، والتنعُّم بعبادته، فلا شيء أشرحُ لصدر العبد من ذلك. حتىٰ إنَّه ليقولُ أحيانًا: إن كنتُ في الجنَّة في مثل هٰذه الحالة، فإني إذًا في عيش طيب.

وللمحبَّة تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصَّدر، وطيبِ النَّفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلَّا مَن له حِسّ به، وكلَّما كانت المحبَّة أقوىٰ وأشدَّ، كان الصَّدرُ أفسحَ وأشرحَ، ولا يَضيق إلَّا عند رؤية البطَّالين الفَارِغين من هٰذا الشَّأن، فرؤيتُهم قَذَىٰ عينه، ومخالطتهم حُمَّىٰ روحه.

ومِنْ أعظم أَسباب ضيق الصَّدر: الإعراضُ عن الله تعَالىٰ.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: (ومنها) من أسباب انشراح الصدر (العلم) العلم، (أل) العلم للعهد العلم المعهود المعروف هو العلم النّافع، وهو العلم الموروث من رسول الله ﷺ (فإنه يشرح الصَّدر، ويوسِّعه حتىٰ يكون أَوسعَ من الدُّنيا)؛ لأنه علىٰ بصيرة في دينه، علىٰ بصيرة في سيره إلىٰ الله، لا يتخبط في سيره إلىٰ الله، في عبادته، في طاعته، في معاملاته لإخوانه المسلمين وغير المسلمين، يعرف كيف يعامل النَّاس جميعا، لذلك يقول: (حتىٰ يكون أَوسعَ من الدنيا) لأنه يعلم كيف يعيش في هٰذه الدنيا، كيف يعامل ربَّ العالمين، وكيف يعامل أولياءه، وكيف يعامل أعداءه، يعلم كلَّ شيء يحتاج إليه.

(والجهلُ يورثه الضِّيق والحَصْر والحبس) الجاهل الذي لا يعرف ما يجب لله، لا يعرف حق الله، لا يعرف حقَّ رسول الله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، لا يعرف حقَّ عباد الله، قد يُعطي ويصرف لعباد الله محض حق الله تعالىٰ لجهله، الجاهل الذي يجهل الضَّروريات من الدين، العلم الضروري الذي لا يسع مسلمًا أو مسلمة أن يجهله، هٰذا يكون في ضيق في حرج في حبس، لا يعرف حتىٰ ما يصلحه هو، لا يصلح العبد شيء مثل معرفته لربِّه.

الجاهل لا يعرف ربَّه، الجاهل يتَّبع كلّ ناعق.

إذا قال له قائل: الله في صدري. كما يقول بعض شيوخ الطُّرق يصدِّق.

إذا قال له قائل: الله في كل مكان. يصدق.

إذا قال القائل: الله، هٰذه السَّمٰوات هٰذه الأجرام هي نفسها هي الله. يصدقها.

الجاهل الذي لا يعرف ربه حقيقة المعرفة، ولا يعرف نبيَّه حقَّ المعرفة، وما جاء به رسول الله –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– المعرفة الواجبة، في ضيق ليس بعده ضيق، وفي حرج، وفي حبس.

لذلك ننصح إخواننا المسلمين أن يتعلّموا العلم الضَّروري، العلم علمان:

علم ضروري لا يسع مسلما جهله أبدا، لذلك عندما بدأ شيخ الإسلام المُصلح المجدِّد تجديده، ألّف للناس رسالة صغيرة كانوا يحفِّظونها حتىٰ العوام والأطفال، يحفظون العوام في مساجدهم، والأطفال في بيوتهم؛ لأنَّ هٰذه رسالة التي تسمىٰ الأصول الثلاثة مشتملة علىٰ العلم الضَّروري الذي لا يسع مسلما جهله.

لذلك علىٰ طلّاب العلم وعلىٰ المصلحين المنتشرين في العالم للإصلاح أن يبدؤوا في تربية الناس بصغار العلم، بأن يعرّفوهم رب العالمين ودينه ونبيه، وشروط الصلاة وواجبات الصلاة، أركان الصلاة، معنىٰ (لا إلٰه إلا الله)، نواقض الإسلام، هٰذه الأمور لا يسع مسلما جهلها، من جهل هٰذه الأمور إسلامه علىٰ خطر، إسلام تقليدي، إيمانه إيمان تقليدي لا يجدي ولا ينفع، لذلك فهو في ضيق وفي حبس.

فنسأل الله تعالىٰ أن يرزقنا علما نافعا وعملا صالحا مقبولا عنده سبحانه.

يقول الشيخ رحمه الله تعالىٰ: (**والجهلُ يورثه الضِّيق والحَصْر والحبس**) هٰذا شيء ملموس، والجاهل يُدرك ذلك من نفسه، الإنسان الذي أدرك مرضه، من الغباوة بما كان أن لا يبادر بالعلاج، والجَاهل الذي يعلم من نفسه مثل هٰذا الجهل، من الغباوة بما كان عدم المبادرة بالتعلُّم، والتعلُّم في هٰذا الوقت أيسر من أي وقتٍ مضىٰ، عندما كانت الناس تسافر من مكان إلىٰ مكان في البحث عن مسألة علمية وعن عالم يعلّم النَّاس، بينما الآن العلم دخل عليك في بيتك بواسطة الأشرطة، وبواسطة المذياع، دخلت عليك المسائل العلمية والفتاوىٰ الإسلامية، دخلت عليك في بيتك، من قصّر في هٰذا الوقت

بالتعلُّم رجالًا ونساءً فهو المقصِّر ليس لدبه أدنىٰ عذر أبدا، أينما كان حتىٰ المسلم الذي يعيش في غير بلاد المسلمين العلم يلحقه هناك.

يقول العلامة ابن القيم: (**لما اتَّسع علمُ العبد انشرح صدره واتسع،**) إذا تجاوز المعلومات الضَّرورية ودرس واتَّسعت معلوماته في العقيدة، في الشريعة، في الأحكام، في المعاملات (**انشرح صدره واتَّسع، وليس هٰذا لكلِّ عِلم**)؛ لأنَّ العلم بالمفهوم اللّغوي بمعنىٰ المعرفة، يشمل أيَّ علم؛ ولٰكن هٰذا العلم الذي هو موضع حديثنا، ليس كلّ علم، (**بل للعلم الموروث عن الرّسول ﷺ**)، العلم الشرعي، العلم الذي به تعرف الله، وتعرف به دين الله، وتعرف رسول الله ﷺ، وتعرف الدار الآخرة والاستعداد لها، وليس معنىٰ ذلك أنَّه لا يسوغ لك أن تتعلم غير هٰذا العلم؟ لا، تعلَّم هٰذا العلم، وبعد ذلك تعلم أي علم نافع لك في الدُّنيا والآخرة ما لم يكن ضارًّا، وهو العلم النافع، العلم النَّافع النَّفع المطلوب للعبد في آخرته في دينه، وقد تكون علوم الدُّنيا نافعة نفعا خاصًّا نفعا مقيَّدا نفعا مؤقتا؛ لكن هٰذا العلم (**هو العلمُ النَّافع**) النفع الذي لا تستغني عنه أبدًا، (**فأهلُه أشرحُ النَّاس صدراً**) أهل هٰذا العلم (**أشرحُ النّاس صدراً، وأوسعهم قلوبًا، وأحسُنهم أخلاقًا، وأطيبُهم عيشًا.**) لا يضيقون.

ثم قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: (**ومنها: الإنابة**) الإنابة إلىٰ الله من أسباب انشراح الصَّدر (**الإنابة إلىٰ الله ﷻ، ومحبتُه بكلِّ القلب**) حتىٰ لا يكون في قلبك محبوب سواه، لا تحبُّ أحدًا مع الله، حرامٌ علىٰ قلبٍ أن يجمع محبته ومحبة غيره.

انتبه! هما محبتان، الحب في الله، والحب مع الله المحرم الذي لا يجوز أن تتورّط فيه؛ أن تحب مع الله، أن تجمع في قلبك مع الله محبوبًا آخر تحبُّه كما تحبُّ الله، وتعظِّمه كما تعظم الله، وتخافه وترجوه وتراقبه، وتعتقد أنَّه معك في كل لحظة يعلم منك كلَّ شيء، لا يوجد من يتَّصف بهٰذه الصفات غير ربِّ العالمين، ولو جعلت محبوبا آخر شيخك، إمامك، شيخ طريقتك، جعلت له شيئا من هٰذه المحبّة حلَّ في قلبك مع الله، تعظِّمه وتخاف منه أشركت بالله شركا أكبر، لا يُغفر إلا بالتَّوبة، حتىٰ تطرُد ذاك المحبوب الثاني من قلبك، ليكون محبوب قلبك هو الله وحده لا شريك له.

أمّا من يحب شيخه ورئيسه كما يحب الله فيعظّمه كما يعظم الله، وربّما يعتقد فيه معرفة علم الغيب

وأنه يضرّه أو ينفعه ويحذره منه مشرك شركًا أكبر.

وهناك محبة -محبَّة طبيعية- تحبُّ ابنك وأهلك، تحبُّ سيارتك، تحبُّ مالك، هـٰذه محبة طبيعية ليس فيها خضوع وتذلُّل..، ليست محبة عبادة ، فهناك محبة عظيمة نافعة لك، الحبُّ في الله، تحبُّ أولياء الله ، شخصا تعتقد فيه الصلاح والتقوىٰ والاستقامة، تحبه لا لشيء آخر؛ بل لكونه وليًّا من أولياء الله وعبدا صالحا لله، محبًّا لله، أحببته لكونه يحبُّ الله، هـٰذا علم صالح، لذلك إذا تحابَّ اثنان في الله واجتمعا علىٰ هـٰذه المحبة وافترقا عليها يكونان من الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

إذن فرِّق، باب المحبة باب عظيم، يجب علىٰ طلاب العلم أن يدرسوا هـٰذا الباب، الإشراك في هـٰذا الباب شيء خطير جدا؛ لذلك قال: (**ومحبتُه بكلِّ القلب**) كما شرحنا، (**والإقبالُ عليه**) لا تقبل إلا عليه، لا تلتفت بقلبك إلا إليه، والتنعّم بعبادته وأن تُحسَّ التَّنعُّم والراحة بعبادته، ذلك إذا وحَّدت الله، أما إذا كنت تعبد معه غيره، لا تجد ذلك التنعم وأنت في قلق تخاف الله وتخاف غير الله، وربَّما يزين لك شيطانك فيقول: لو قصَّرت في حق الله الأمر هيّن؛ لأن الله غفور رحيم؛ لكن لو قصرت في حق الشَّيخ، الشَّيخ لا يتسامح لا يغفر ولا يعفو.

لا تعتبر هـٰذا الكلام فيه نوع من المبالغة، هـٰذا موقف كثير من أتباع مشايخ الطُّرق الذين استولت علىٰ قلوبهم محبة شيوخهم.

لدي سؤال وردني البارحة في هـٰذا المعنىٰ، سوف نجيب عليه لتتصوروا أن أتباع مشايخ الطُّرق يعظمون مشايخهم أكثر من تعظيمهم لربِّ العالمين، ويخافون منهم أكثر مما يخافون من ربِّ العالمين، بدعوىٰ أنَّ الله غفورٌ رحيم، والشيخ لا يغفر ولا يرحم، يجب أن تكون معه حرفيا، أين الإيمان؟ ما هـٰذا؟

(**والإقبالُ عليه، والتنعُّم بعبادته، فلا شيء أشرحُ لصدر العبد من ذلك**) اسأل مجرِّبا ولا تسأل طبيبًا. العلامة ابن القيم من الذين لهم ذوق خاص في هـٰذا المعنىٰ، لذلك يتحدَّث عن معرفة وعن إحساس وعن تجربة، لا يتحدَّث حديث ناقل مثلما من ينقل كلام النَّاس إلىٰ النَّاس، (**فلا شيء أشرحُ لصدر العبد من ذلك. حتىٰ إنه ليقولُ أحيانًا: إن كنتُ في الجنَّة في مثل هـٰذه الحالة**). يقول العلامة ابن القيم قد يصل العبد إلىٰ درجة (**إنَّه ليقولُ أحيانًا: إن كنتُ في الجنَّة في مثل هـٰذه الحالة**)، أي شغل بالدُّنيا جنة

وأحسبهٰذه الجنة وتنعم بها يقول: إذا وجدت في الآخرة جنَّة كهٰذه (فإني إذًا في عيش طيب)، هٰذا لا يقوله الذي يحكي؛ ولكن يقوله الذي تذوق رحمه الله.

يقول العلامة ابن القيم: (وللمحبة تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصَّدر) وهٰذه المحبة لا تحقَّق -أيُّها الإخوة- إلَّا في الإقبال الكامل وعدم الانشغال بغير الله.

أمَّا من شغل نفسه بغير الله؛ بغير عبادته، بغير طاعته، بغير اتِّباع دينه، من شغل نفسه بأمور تَافهة لا تستحق مثل هٰذه المحبة؛ بل (وللمحبة تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصَّدر، وطيبِ النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلَّا مَن له حِسٌّ به)، صدق رحمه الله؛ لا يعرف ذلك ويدركه إلّا من له حسٌّ بذلك؛ بل كلما كانت المحبة أقوىٰ وأشدّ كان الصَّدر أفسح وأشرح، لذلك مع كثرة ما ابتلوا به من خصومهم وأعدائهم من الطَّرد ونفي وسجن ما كانوا يتضايقون أبدًا؛ الذي يدلُّكم علىٰ ذلك؛ هو وشيخه لم يجدا راحة من أعدائهما، مع ذلك انظروا إلىٰ مؤلفاتهما خصوصا مؤلفات شيخه، متىٰ ألف هٰذه المؤلفات التي عجزنا الآن من استيعابها، فهو يُسجن وهو يطرد وهو ينفىٰ، متىٰ ألف هٰذه المؤلفات؟! يدخل في السجن فيؤلف مع العبادة والخلوة، يشتغل بالتأليف والتعليم، يُطرد إلىٰ الإسكندرية وإلىٰ القاهرة، ويتربّع علىٰ كرسي في مسجد من المساجد فيدرِّس، لا يشغله الطَّرد، ولا يشغله النَّفي عن التَّعلم والتعليم ونفع عباد الله والاشتغال بطاعة الله؛ لأنه لا يُحس هٰذا الذي يحسُّه أحدنا عندما يحصل له أي شيء وأي ابتلاء يضيق صدره ويقصّر في الواجبات وفي أداء الواجبات وتعليم عباد الله، أمّا هم، لا، هٰذا دليل علىٰ أنهم وصلوا إلىٰ أنهم أحسوا هٰذا الذي يتحدَّثون عنه.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: (وللمحبة تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصَّدر، وطيبِ النَّفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلَّا مَن له حِس به، وكلَّما كانت المحبَّة أقوىٰ وأشدَّ، كان الصَّدرُ أفسحَ وأشرحَ، ولا يَضيق إلا عند رؤية البطَّالين الفارِغين من هٰذا الشَّأن) عندما يختلط البطَّالين أصحاب البطالة المعرضين عن الله المعرضين عن التَّعلم والتَّعليم المنشغلين في دنياهم وما يلهيهم عن الله، هؤلاء أصحاب البطالة، الفارغين بجهلهم، (فرؤيتُهم قَذَىٰ عينه) رؤية أمثال هؤلاء عند ابن القيم وغيره هٰذا يتقذىٰ ويتأذىٰ برؤية هؤلاء؛ إذ ليس في إمكانه هدايتهم وتعليمهم جميعًا ودعوتهم إلىٰ الله، ماذا يعمل؟ يتأذىٰ برؤيتهم،

المقاهي ملآنـة، والشـوارع مـلآ بأمثـال هـؤلاء، كيـف لـه حيلـة في إرشـادهم وهـدايتهم مـن ذلـك يتـأذىٰ، (ومخـالطتهم حُمَّىٰ روحـه) تمـرض روحـه إذا خـالط أمثـال هـؤلاء لـذلك يـرون إنَّ السِّـجن خلـوة لهـم يستريحون فيها مع الله، يكونون مع الله، يكـون الله معهـم بالنَّصـر والتَّأييـد والتَّوفيـق، ويعينـهم ذلـك علىٰ السَّير إلىٰ الله.

۞۞۞۞

[ومِنْ أعظم أَسباب ضيق الصدر: الإعراضُ عن الله تعالىٰ، وتعلُّقُ القلب بغيره، والغفلةُ عن ذِكره، ومحبةُ سواه، فإن مَن أحبَّ شيئًا غيرَ الله عُذِّبَ به، وسُجِنَ قلبُه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقىٰ منه، ولا أكسف بالًا، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعب قلبًا، فهما محبتان: محبة هي جنَّة الدُّنيا، وسرور النَّفس، ولذَّةُ القلب، ونعيم الرُّوح، وغِذاؤها، ودواؤُها، بل حياتُها وقُرَّةُ عينها، وهيٰ محبةُ الله وحدَه بكُلِّ القلب، وانجذابُ قوىٰ الميل، والإرادة، والمحبة كلِّها إليه.

ومحبةٌ هي عذاب الروح، وغمُّ النفس، وسِجْنُ القلب، وضِيقُ الصدر، وهي سببُ الألم والنكد والعناء، وهيٰ محبة ما سواه سبحانه.]

ومن أسباب شرح الصَّدر دوامُ ذِكره علىٰ كُلِّ حال، وفي كُلِّ موطن، فللذِكْر تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثيرٌ عجيب في ضِيقه وحبسه وعذابه.

ومنها: الإحسانُ إلىٰ الخَلْق ونفعُهم بما يمكنه من المال، والجاهِ، والنَّفع بالبدن، وأنواع الإحسان، فإنَّ الكريم المحسنَ أشرحُ الناس صدراً، وأطيبُهم نفساً، وأنعمُهم بالاً، والبخيلُ الذي ليس فيه إحسان أضيقُ الناسِ صدراً، وأنكدُهم عيشاً، وأعظمُهم همًّا وغمًّا. وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصَّحيح مثلًا للبخيل والمتصدِّق، «كمَثَل رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا هَمَّ المُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ، اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ، حَتَّىٰ يَجُرَّ ثِيَابَهُ وَيُعْفِيَ أَثَرَهُ، وكُلَّمَا هَمَّ البَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ، لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، وَلَمْ تَتَّسِعْ عَلَيْهِ». (١) فهٰذا مَثَلُ انشِراحِ صدر المؤمن المتصدِّق، وانفساح قلبه، ومثلُ ضِيقِ صدر البخيل وانحصارِ قلبه.

الحمد لله، والصلاة والسَّلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه، وبعد:

قال العلامة ابن القيم رحمه الله وتعالىٰ: (ومِنْ أعظم أَسباب ضيق الصَّدر: الإعراضُ عن الله تعالىٰ)

يذكر العلاَّمة ابن القيم الدَّاء، ويعطيك الدَّواء، (مِنْ أعظم أَسباب ضيق الصَّدر: الإعراضُ عن الله تعالىٰ،

---

(١) أخرجه البخاري (ح٥٧٩٧)، ومسلم (ح١٠٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

وتعلُّقُ القلب بغيره، والغفلةُ عن ذِكره) الإعراض عن الله -تعالىٰ- وعن دينه قد يصل إلىٰ حدِّ الرِّدَّة، وقد عدّ بعض أهل العلم الإعراض عن دين الله تعالىٰ من نواقض للإسلام بحيث لا يتعلَّم الإسلام ولا يحاول العمل به؛ بل لا يرفع رأسه لمعرفة ما جاء به النَّبي ﷺ، ويستدلون علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1]، الإعراض عن الدِّين وعن ما جاء به النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بحيث لا يشتغل بتعلُّمه والعمل به؛ بل لا يبالي به ولا يرفع رأسه إذا تعلَّم الهُدىٰ الذي جاء به النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، هٰذا الإعراض قد يصل إلىٰ حدِّ الكفر، وهو معدود من نواقض الإسلام كما علِمتم ودَرَسْتم في نواقض الإسلام.

(**وتعلُّقُ القلْب بغيره**) تعالىٰ يشمل تعلُّق الإنسان برئيسه بشيخه، وتعلّقه بدنياه وماله ومعبوده من غير الله، (**والغفلةُ عن ذِكره**) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يذكر الله، لا يكاد يذكر الله، مشغول بما تعلَّق به قلبه،(**ومحبةُ سواه**) ممّا يسبب ضيق الصَّدر محبة غير الله -تعالىٰ- محبة لا تليق إلَّا بالله كما تقدم في درس الأوّل، فإن من أحب شيئا غير الله عذب به، فيكون دائما يكون مشغولا بهٰذا المخلوق الذي أحبه، سواء أحبه لكونه شيخه أو لأنه رئيسه، أو أحبّ ماله ودنياه، فغلبته دنياه وماله ودنياه عن ذكر الله تعالىٰ، وسبّب ذلك له الإعراض عن الله وشغل، وإذا أحبّ غير الله مع الله محبة التي هي محبة عبادة، فيها الخضوع والتّذلل، وأحب غير الله مع الخضوع والتّذلّل فهو شرك أكبر ومن نواقض الإسلام، فمن ابتلي بمثل هٰذه المحبّة أي محبة غير الله -تعالىٰ- قد أبتلي، يذكر العلامة ابن القيم في بعض كتبه: إنَّما الشِّرك أعظم الذُّنوب، وأن من مات عليه لا يُغفر له ويكون خالدًا مخلَّدا في النار؛ لأنَّ الشِّرك تنقص به محبة الله تعالىٰ، محبة الله روح الإيمان، الإيمان بدون محبة الله تعالىٰ كالجسد الذي بلا روح، أي إيمانه إيمانٌ شكلي ليس إيمانًا حقيقيا إذا فقد محبة الله، إذا أشرك مع الله في هٰذه المحبة العظيمة، وهٰذا العنصر العظيم من عناصر الإيمان، إذ قسمت هٰذه المحبّة اثنين قسم لله وقسم لغير الله نقصت المحبة، لذلك أصبح الشِّرك من أعظم الذُّنوب.

---

(١) سورة: السَّجدة.

(**فإنَّ مَن أحبَّ شيئًا غيرَ الله عُذِّبَ به**) لأنه مشغول به ولا ينفعه ولا يضره، (**وسُجِنَ قلبُه في محبة ذلك الغير**) فأعرض عن الله فذلك المحبوب لا يقدِّم ولا يؤخِّر ولا ينفعه في شيء.

ويقول العلامة ابن القيم: (**فما في الأرض أشقىٰ منه، ولا أكسف بالًا، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعب قلبًا**) لأنَّه صرف هـٰذا المعنىٰ العظيم كله أو جله لغير الله تعالىٰ فحرم محبة الله ومعية الله الخاصَّة وعونه وتوفيقه؛ فلم يستفد من محبة غيره.

ثم قال: (**فهما محبتان**) المحبة محبتان، (**محبة هي جنة الدُّنيا، وسرور النَّفس**)، من رُزق تلك المحبة دخل جنَّة الدنيا، ورُزق سرورًا لا مثيل له، ولذَّة القلب ونعيم الروح وغذاء الروح ودواء الروح؛ بل حياة قلبه وقرة عينه، وهي محبة الله وحده بكل القلب -بهـٰذا القيد-، بكل القلب بحيث لا تنقسم المحبَّة بينه وبين غيره، من رُزق هـٰذه المحبة بكل قلبه دخل جنة الدنيا وهو في الدنيا، ومن دخل جنة الدنيا -إن شاء- إنه يدخل جنة الآخرة بتوفيق الله تعالىٰ؛ لأنَّ هـٰذا علامة التوفيق إن مات علىٰ ذلك يرجىٰ له الخير، من مات علىٰ غير عمله ترجو له خيرا، هـٰذه هي المحبّة (**وهىٰ محبةُ الله وحدَه بكُلِّ القلب، وانجذابُ قوىٰ الميل، والإرادة**) وقوىٰ المحبة كلِّها علىٰ الله ﷻ، بحيث لا يلتفت إلىٰ سواه في السراء والضراء، في كل لحظة، فتصير الموجودات كلُّها كالجمادات إذْ لا تنفع ولا تضرُّ حقا، لا فرْق بين الجمادات وغير الجمادات؛ لأنَّ المخلوقات كلُّها لا تضرك إلا بما كُتب عليك، ولا تنفعك إلا بما كتب لك، إذ الأمر كلُّه لله هكذا يرزق بعض -عباد الله- مثل هـٰذه المحبة فيدخلون جنَّة الدنيا قبل جنة الآخرة هـٰذه واحدة.

المحبة الثانية (**محبةٌ هي عذاب الرُّوح، وغمُّ النفس، وسِجْنُ القلب، وضِيقُ الصدر، وهي سببُ الألم والنكد والعناء، وهىٰ محبة ما سوىٰ الله**) من ابتُلي بمحبة مخلوق ما أيًّا كان، مخلوقا يَعبده ويعظِّمه، مخلوقًا يشغله عن الله -تعالىٰ- ولو لم يكن من باب العبادة ولكن يشغله عن الله عن المعبود، سُجن قلبه وضاق صدره، وسيقت إليه الآلام والنَّكد والعناء من كل فجّ، ويعيش في ضيق.

وبهـٰذا يشخّص العلَّامة ابن القيم أمراض القلب، وأمراض القلب علاجها بالطِّب النَّبوي، والأطباء لا يعالجون هـٰذا المرض وقد يكونون هم أنفسهم مرضىٰ؛ ولـٰكن العلاج بالطِّب النبوي، اشتغل بذكر الله

الأذكار المشروعة، عليك أن تقتني كتب الأذكار؛ (الأذكار للنَّووي)، و(الوابل الصَّيب)، و(الكلم الطَّيِّب)، و(صحيح الكلم الطَّيِّب)، وغير ذلك من الأذكار من الكتب التي جمعت لك الأذكار المأثورة، وتبيّن فضل الأذكار ومكانة الأذكار حتىٰ لا تنسىٰ الله، إن نسيت الله هلكتَ ووقعتَ في هٰذه الآلام، إذا شُخِّص المرض سهل العلاج، إذا عرفنا أنواع هٰذه الأمراض، علينا أن نشتغل بالعلاج بتوفيق الله تعالىٰ.

قال العلامة ابن القيم: (**ومن أسباب شرح الصَّدر دوامُ ذِكره علىٰ كُلِّ حال**) وهٰذا سهل ميسور علىٰ من يسَّره الله عليه، فاذكروا الله بالأذكار المقيَّدة عند نومك، عند الاستيقاظ من النَّوم، عند الخروج من المنزل، عند دخول المنزل، عند دخول المسجد، عند الخروج من المسجد، الأذكار المقيَّدة الكثيرة، فاذكروا الله في طريقك، عند ركوبك، بأذكار مشروعة، لا تحتاج إلىٰ أن تتخذ سبحة طويلة، فاذكروا الله بالتهليل والتَّسبيح والاستغفار، وتُكثر من الصَّلاة علىٰ النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وأفضل الذِّكر تلاوة كلامه، التالي لكلام الله القرآن لأنه يتحدث مع الله، فأفضل الذكر إلا في بعض المواطن، المواطن التي عيّن الشَّارع لها أذكارًا معينة تشتغل بهٰذه الأذكار.

أمَّا في الأوقات العامة فأفضل الذِّكر قراءة القرآن بتعقل وتدبر ثم محاولة العمل به والدَّعوة إليه، (**وفي كل موطن، فللذِّكر تأثير عجيبٌ في انشراح الصَّدر**)، هٰذا كلام مجرِّب يقول العلامة ابن القيم (**للذِّكر تأثير عجيب في انشراح الصَّدر**) جرِّب أكثر من ذكر الله تعالىٰ حتىٰ ترىٰ الأُنس مع الله، فإذا تركت ذكره وشغلك شاغل وجدت وحشة في نفسك، لا تستأنس إلَّا حين تذكر الله بالأذكار المشروعة، (**ونعيم القلب، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه**)، الغفلة عن الله تقدّمت الإشارة إلىٰ تلك الأسباب المؤدية للغفلة، التعلق بغير الله والانشغال بغير الله، وعدم الانشغال بتعلم شرع الله والعمل به، والانشغال بجمع المال في كل وقت حتىٰ ينصرف إلىٰ ذلك انصرافا كلِّيا، وأن يشغل بمحبوب أحبه أيًّا كان ذلك المحبوب ماله وولده وأهله وشيخه ورئيسه، كلُّ ذلك يوقعه في الغفلة عن الله ويسبِّب له الوحشة والعذاب.

يقول العلامة ابن القيم من أسباب انشراح الصدر: (**الإحسانُ إلىٰ الخَلْق ونفعُهم بما يمكنه من المَال**) الإحسان نوعان:

الإحسان في عبادة الله -تعالىٰ- بأن تعبد الله بالعبادات المشروعة بالإخلاص وبالمتابعة.

النوع الثاني الإحسان إلىٰ الخلق، الإحسان إلىٰ عباد الله شكرًا لله الذي أنعم عليك ومكَّنك لتكون يدك هي اليد العليا، وأعطاك ومكَّنك من الإنفاق والإحسان بالإحسان إلىٰ الخلق شُكْر لله ﷻ ورحمة وشفقة، يرحم المرضىٰ، ويرحم أصحاب الحاجات والمنكوبين، وكلَّ من يحتاج إليه، بما يمكنه من المال قليلًا كان أو كثيرًا، وينفعهم بجاهه بما لديه من الجاه والمنصب، يستغلُّ جاهه ومنصبه ومكانته عند الناس في نفع عباد الله، (والنَّفع بالبدن، وأنواع الإحسان) الكثيرة.

يقول: (فإنَّ الكريم المحسنَ أشرحُ النَّاس صدرًا، وأطيبُهم نفسًا، وأنعمُهم بالًا) لأنه أرضىٰ ضميره، أرضىٰ الله وأرضىٰ ضميره بهٰذا الإحسان، وبتفريج كرب المكروبين وقضاء حاجة المحتاجين.

وأمّا (البخيلُ الذي ليس فيه إحسان أضيقُ الناسِ صدرًا، وأنكدُهم عيشًا، وأعظمُهم همًّا وغمًّا) الذي ليس فيه إحسان فهو أضيق الناس صدرا وأنكدهم عيشا وأعظمهم هما وغما؛ لأنه خالف الفطرة وخالف المعقول وخالف الشرع، لذلك ضميره يؤنّبه لذلك يحمل الهمّ والغم.

والبخل والشُّحّ لا يمكنه أن يمد يد الإحسان إلىٰ عباد الله لا يكون قلقا بين إرضاء بخله وبين ما يحسُّه من تأنيب ضميره.

(وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصَّحيح مثلًا للبخيل والمتصدِّق، «كمَثَل رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا هَمَّ الْمُتَصَدِّقُ- الكريم السَّخي- بِصَدَقَةٍ، اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ، حَتَّىٰ يَجُرَّ ثِيَابَهُ وَيُعْفِيَ أَثَرَهُ») يعفي بذلك أثره، وينفق في سبيل الله تعالىٰ في السِّرِّ والعلانية ولا يُنفق رياء وسمعة، وكلَّما همّ البخيل بالصدقة التي لزمته تلك لزمته كل حلقة مكانها ولا تتسع، ولم تتَّسع عليه، حتىٰ لا يتمكن من مد يده، هٰذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدِّق وانفتاح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه.

البُخل يلازم الْجُبن، والكرم يلازم الشَّجاعة، إذا رأيت كريمًا سخيًّا فاعلم بأنه شجاع، وإذا رأيت بخيلا شحيحا فاعلم بأنه جبان، هكذا أثبتت التَّجارب التلازم، سيأتي الآن في العنوان الآتي.

ثم قال رحمه الله:

ومنها: الشَّجاعة.

فإنّ الشُّجاع: منشرح الصدر، واسع البطان، متَّسِعُ القلب.

والجبانُ: أضيق الناس صدراً، وأحصرُهم قلبًا، لا فرحة له ولا سرور، ولا لـذَّة لـه، ولا نعيم، إلا منْ جنس ما للحيوان البهيمي، وأمّا سرور الرّوح، ولذَّتُها، ونعيمُها، وابتهاجُها، فمحرَّمٌ علىٰ كـل جبـان، كمـا هو محرَّم علَىٰ كل بخيلٍ، وعلىٰ كُلِّ مُعرِض عن الله سبحانه، غافلٍ عن ذِكره، جاهـلٍ بـه وبأسـمائه تعـالىٰ وصفاته، ودِينه، متعلِّقُ القلبِ بغيره. وإن هـٰذا النَّعيم والسُّرور، يصير في القبر رياضًا وجنة، وذلـك الضيـقُ والحصر، ينقلبُ في القبر عـذابًا وسـجنًا. فحـال العبـد في القبـر. كحـال القلـب في الصَّـدر، نعيمًـا وعـذابًا وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرةَ بانشراح صدر هـٰذا لعـارض، ولا بضـيق صـدرِ هـٰذا لعـارض، فـإن العـوارِضَ تـزولُ بـزوال أسـبابها، وإنَّمـا المعـوَّلُ علـىٰ الصِّـفة التـي قامـت بالقلـب تُوجـب انشـراحه وحبسـه، فهـي الميزان.. والله المستعان.

قال العلامة ابن القيم من أسباب انشـراح الصـدر الشـجاعة، فـإن الشـجاع منشـرح الصـدر، الشـجاع الـذي يبـذل روحـه تضـحية في سـبيل الله تعـالىٰ، فـذلك يبـذل المـال ومنشـرح الصـدر، محبـوب عنـد الله، (واسع البطان)، البطان حزام للـقتب[1]، يقال: إذا أراد الإنسان أن يصف الأمر بالشدة يقول: التقت حلقتا البطان. أي الحزام حزام القتب، (واسع البطان)، متَّسع القلب، منشرح البال.

والجبان ضيق الـنفس، (والجبـانُ: أضـيق النَّـاس صـدرًا) لأنـه علـىٰ خـلاف الفطـرة السـليمة والعقـل الصَّريح وأمر الشَّريعة، مأمور بأن يبذل ويُنفق، خالف ذلك خُلقه، الجبن والبخل منع من ذلك.

إذن فهو بين امتثال هـٰذا البُخل وبين تحمُّل عتاب ضميره وعتاب النّاس له؛ لذلك هو (أضـيق النـاس صـدرًا، وأحصـرُهم قلبًـا، لا فرحـة لـه ولا سـرور)، يحـاول أن يفـرّ مـن النَّـاس، فيعـرض عـن أصـحاب الحاجات لأنْ لا يمد يد المسـاعدة، ويحـاول أن يخفـي مـا لديـه مـن الـنِّعم، (ولا لـذَّة لـه) إلا لـذة البهـائم

---

(١) (البطان) للقتب الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير، يقال: الْتَقَتْ حلقتا البطان للأمر إذا اشتد، مختار الصحاح، مادة [ب ط ن].

البُهم، (ولا نعيم، إلا منْ جنس ما للحيوان البهيمي)، يتلذَّذ بأكله وشربه ونكاحه كالحيوانات.

أما كونه يتلذَّذ بالبذل والعطاء وقضاء حاجات النَّاس، والإحسان إلىٰ المحتاجين، هـٰذا يجد فيه الإنسان لذة، من رزقه الله مالا وهو صالح، نعم المال الصَّالح للرَّجل الصَّالح، الرَّجل الصَّالح عندما يرزق المال الصَّالح الحلال الطيِّب فيُنفق في مرضاة الله -تعالىٰ- يجد في ذلك لذة وسرورًا وانشراحًا للصَّدر.

وأمَّا سرور الرُّوح ولذَّة الرُّوح ونعيم الرُّوح وابتهاج الرُّوح فمحرَّم علىٰ كلِّ جبان؛ لأنَّ هـٰذه المعاني لا تحصل إلَّا حين يُعطي وإلا حين يحسن، فما هو محرم علىٰ كل بخيل وعلىٰ كل معرض عن الله تعالىٰ غافل عن ذكره، جاهل بالله ولأسمائه تعالىٰ وصفاته، جهله بالله لأن الله ﷻ هو المعطي المانع وهو المنعم المتفضِّل، وهو الذي رزقه، وهو الذي إن شاء يُمسك عنه، ويُزيل ماله، جهله بأسمائه وصفاته، وجهله بدينه الذي يأمر بالإحسان والرَّحمة والشفقة، متعلق القلب بغيره، مشغول بغيره دائمًا، إمّا بماله ذاته أو بأمثاله من زملائه البخلاء، أو متعلِّق بغيره ليلتمس منهم البركة في ماله ليباركوا له في ماله.

(وإنَّ هـٰذا النَّعيم والسُّرور يصير في القبر رياضًا وجنة) لذلك قال من قال كما سمعتم لا يدخل الإنسان جنة الآخرة حتىٰ يدخل جنة الدُّنيا، إذا دخل جنة الدُّنيا فحصل له هـٰذا السرور وهـٰذه الفرحة، ونعيم القلب هـٰذه المعاني تتحول في القبر علىٰ رياض وجنة، القبر إمّا روضة من رياض الجنة وحفرة من حفر النار.

(وذلك الضِّيقُ) الذي عند البخيل وعند الجبان، (وذلك الضِّيقُ والحصر، ينقلبُ في القبر عذابًا وسجنًا) لأن هـٰذا البخيل قد يبخل بحق الله، لا يؤدي حقوق الله التي جعلها الله في ماله التي جعلها في يد هؤلاء العباد، المال مال الله جعله في يد بعض عباده، ليُحسن البعض للبعض الآخر من مال الله، يعطي من مال الله لعباد الله، جعل الله في هـٰذا المال حقًّا واجبا لازما رُكنا من أركان الإسلام، وجعل فيه واجبات أخرىٰ، يبخل في كل ذلك، ويتحوّل كل ذلك عذابًا وسجنًا.

(فحال العبد في القبر. كحال القلب في الصّدر) فلينظر هل هو منشرح الصَّدر يعيش في نعيم وفي سرور، أو هو ضيق الصَّدر يعيش في سجن وحصر وعذاب، (نعيمًا وعذابًا وسجنًا وانطلاقًا) التوفيق بيد

الله.

(**ولا عبرةَ بانشراح صدر هٰذا لعارض**) أي انشراح هٰذا الذي ضاق صدره، ينشرح صدره أحيانا لعارض، ويضيق صدر هٰذا لعارض، الإنسان له أعراض بشرية، قد تحصل للإنسان بعض الأعراض البشرية؛ يضيق صدر المؤمن في بعض الظُّروف وفي بعض الحالات، ولكنّه يزول بذكر الله تعالىٰ وبالالتجاء إلىٰ الله والإنابة إليه، وكون الإنسان يصاب أحيانا بأمراض ثم يتعافىٰ ويزول ذلك، وهو الذي لهٰذا الذي صدره ضيق أحيانا انشراح أن وُفق ومدّ يده وأحسن، هٰذه عوارض؛ لكن الصِّفة الدائمة الحالة الدائمة ما وصف لك، (**فإن العوارِضَ تزولُ بزوال أسبابها، وإنما المعوَّلُ علىٰ الصِّفة التي قامت بالقلب تُوجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان.. والله المستعان**).

ومنها؛ بل من أعظمها: إخراجُ دَغَلِ القَلْبِ من الصِّفات المذمومة التي تُوجب ضيقه وعذابه، وتحولُ بينه وبين حصول البُرء، فإن الإنسان إذا أتىٰ الأسباب التي تشرحُ صدره، ولم يُخرِجْ تلك الأوصافَ المذمومة من قلبه، لم يحظَ مِن انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوِرَانِ علىٰ قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

يقول العلامة ابن القيم ومن الأسباب أسباب خفية؛ ولكنها خطيرة، من أعظم تلك الأسباب (إخراجُ دَغَلِ القَلْبِ من الصِّفات المذمومة) الحسد والحقد والحرص الشَّديد وطول الأمل والتَّسويف بالتَّوبة.

يُبتلىٰ بالحسد؛ إذا رأىٰ نعمة علىٰ غيره تمنَّىٰ زوالها سواء انتقلت إليه أو زالت إلىٰ أيِّ جهة، لا تطيب نفسه عندما رأىٰ نعمة علىٰ غيره من مال وعلم وصحّة والتزام؛ أي نعمة، يُصاب بحسد، وهٰذا الحاسد معترض علىٰ الله، لأنّ لسان حاله يقول: لماذا أعطيت فلانًا يا رب هٰذه النعمة؟ لماذا رزقته مالا وصحة وعلما والتزاما؟ وغير ذلك من النعم، حسد وحقد، يضيق صدره، صفات مذمومة، تُنتج الغيبة والنميمة، تُنتج ربما السعي بإلحاق الضرر بالمحسود، فهي توجب ضيقه وعذابه الحاسد أن ترد علىٰ الله والمصاب بطول الأمل أنه سوف يفعل سوف يجمع سوف يشتري سوف يبني؛ عمل طويل وتأخير في التَّوبة فيما بعد، بعد أن يشيب بعد أن يعجز بعد أن يكبر، بعد كذا وكذا صفات ذميمة، وتحُول بينه وبين حصول البر، فإنّ الإنسان إذا أتىٰ الأسباب التي تشرح صدره التي تقدَّم ذكر أكثرها؛ ولكنه لم يُخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه، قد يؤتي فيكثر من ذكر الله؛ لكن مع ذلك أصيب بهٰذه الأمراض، يقول (لم يحظَ مِن انشراح صدره بطائل) لا طائل تحت انشراح صدره طالما هو موصوف بهٰذه الصِّفات الذَّميمة.

العلامة ابن القيم له كتاب؛ بل كتب يعالج فيها هٰذه الأمراض بالطِّب النَّبوي، له كلام عظيم في (طريق الهجرتين)، وفي الكتيِّب الصغير (الفوائد) وفي (مدارج السالكين) و(مفتاح دار السعادة)، علىٰ شبابنا أن يستغلّوا أوقات الفراغ في دراسة هٰذه الكتب التي تعالج أمراض القلب، وتعمل الإنسان علىٰ أن يحاول ليلحق بركب السلف الصالح في الاستقامة، لا بالالتزام الشَّكلي، الالتزام الشَّكلي لا يجدي، الثَّوب القصير واللِّحية الطويلة الكثَّة مما شرع الله وحثَّ عليه؛ ولكن إن لم توجد وراء هٰذا معاني إسْلَامية لا تُجدي هٰذه المَظاهر وحدها.

فليَنبغي أن تكون هٰذه المَظاهر أثرًا لالتزامه واستقامته الحقيقيَّة إذا استقام قلبه وطهُره قلبه وأملت عليه هٰذه المَعاني هٰذا الالتزام الظاهري، نعم الالتزام ونعم الاستقامة.

أمَّا كون إنسان يكتفي بالمظهر، ولا يعالج أمراض قلبه، هٰذا لا يجدي أبدًا، لذلك الكُتب التي ذكرتها احتوت علىٰ آيات وأحاديث فيها العلاج، وتحملك علىٰ تلذُّذ كتاب الله والتَّأمُّل في سنَّة رسول الله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- حتّىٰ تعالج نفسك بنفسك، وتكون طبيب نفسك، وإلَّا فإن هٰذه الأمراض خطيرة كما قال العلامة ابن القيم هنا كون الإنسان يحصل له من أسباب انشراح الصَّدر التي تقدَّم ذكرها؛ ولٰكن أصيب بهٰذه الأمراض لا يستفيد من انشراح صدره، ومن التزامه بالشكل الظاهري أن يجمع بين علاج أمراض القلب وبين تطبيق الشَّريعة والالتزام.

وقول العلامة ابن القيم رحمه الله: (**فإنَّ الإنسان إذا أتىٰ الأسباب التي تشرحُ صدره، ولم يُخرِجْ تلك الأوصافَ المذمومة من قلبه، لم يحظَ مِن انشراح صدره بطائل**) أمر ناقص ليس بكامل (**وغايته أن يكون له مادَّتان**) مادتان تعترض كل مادَّة المادة الأخرىٰ، وهو من المادة الغالبة عليه منهما: إما أن تغلب الأوصاف المذمومة الفر وأثره، والحقد وأثره والتسويف وطول الأمل، والعجب والكبر وغير ذلك من المعاني التي تقدم ذكرها التي توجب انشراح الصدر، وبالله التوفيق.

ومنها: تركُ فضولِ النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطةِ، والأكل، والنَّوم، فإن هـٰذه الفضولَ تستحيلُ آلامًا وغمومًا، وهمومًا في القلب، تحصُره، وتحبِسه، وتضيِّقهُ، ويتعذَّبُ بها، بل غالِبُ عذابِ الدنيا والآخرة منها، فلا إلـٰه إلا اللهُ ما أضيقُ صدَر مَن ضرب في كلِّ آفةٍ من هـٰذه الآفات بسهم، وما أنكَدَ عيشَه، وما أسوأ حاله، وما أشدَّ حصرَ قلبه، ولا إلـٰه إلَّا الله، ما أنعمَ عيشَ مَنْ ضرب في كل خَصلةٍ من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همتُّه دائرةً عليها، حائمةً حولها، فلهـٰذا نصيب وافر مِنْ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾[1]، ولذلك نصيب وافر من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾[2] وبينهما مراتبُ متفاوتة لا يُحصيها إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

والمقصود: أنَّ رسولَ الله ﷺ كان أكملَ الخلق فيْ كلِّ صفة يحصُل بها انشراحُ الصدر، واتِّساعُ القلب، وقُرَّةُ العين، وحياةُ الرُّوح، فهو أكملُ الخلق فيْ هـٰذا الشَّرح والحياة، وقُرَّةِ العين مع ما خُصَّ به من الشرح الحِسِّي، وأكملُ الخلق متابعة له، أكملُهم انشراحًا ولـذَّة وقُرَّة عين، وعلىٰ حسب متابعته ينالُ العبد من انشراح صدره وقُرَّة عينه، ولذَّة روحه ما ينال، فهو ﷺ في ذُروة الكمال مِن شرح الصَّدر، ورفع الذِكْر، ووضع الوِزْر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتِّباعه .. والله المستعانُ.

وهكذا لأتباعه نصيبٌ من حفظ الله لهم، وعصمتِه إيَّاهم، ودفاعِه عنهم، وإعزازه لهم، ونصرِه لهم، بحسب نصيبهم من المتابعة، فمستقِلٌّ ومستكثِر، فمَن وجد خيرًا، فليحمد الله. ومَن وجد غير ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه.

يقول العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- من أسباب انشراح الصدر: (تركُ فضولِ النظر) فضول النظر، بل انظر في كتاب انظر في المخلوقات لتتفكر، ولمن ابتعد عن النظر إلىٰ ما حرم الله عليك من جميع المحرمات التي تأتيها بالنظر، وكذلك أنت تسافر وتنظر وتتفرج ولترىٰ أشياء لإدخال السرور عليك في زعمك وأنت معرض علىٰ النظر في كتاب الله تعالىٰ النظر يورثك التذكر والتعقل والعمل (فضولِ النَّظر، والكلام) فضول الكلام يشمل الكلام المحرَّم، الغيبة والنَّميمة والكلام الذي لا طائل

(١) سورة: الانفطار، الآية (١٣).

(٢) سورة: الانفطار، الآية (١٤).

تحته؛ سواليف تضيع الأوقات ويقتل بها الأوقات، وهم يصرحون بذلك، يطلب بعضهم بعضا الاجتماع ليقتلوا الأوقات؛ لأن الأوقات رخيصة عندهم وطويلة، يخوضون في فضول الكلام، ليس في ذكر الله ولا في كتاب الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فضول الكلام؛ الكلام الفارغ.

وفضول (**الاستماع**) بدل أن يستمع إلىٰ كلام الله وإلىٰ أحاديث رسول الله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إلىٰ محاضرات النافعة، إذا هو يتتبع ليسمع الأغاني وليسمع وليسمع، فضول الاستماع يشغله، كل ذلك يورث ضيق الصدر.

(**والمخالطةِ**) فضول المخالطة، المخالطة في هٰذه الأيام لا تنتج إلا شرا إلا ما شاء الله، اجتماع علىٰ قيل وقال، فلان فقال كذا، فلان جاهل، فلان مقصر، فلان ضعيف.

وللأسف حتىٰ هـٰذا الكلام الذي في يسجل في الأشرطة، فضول الكلام تسجل في الأشرطة وتوزع عليكم، هذه المخالطة، لو خالطوا أهل العلم وأهل الفقه، لو خالطوا طلاب العلم ومن يستفيدون منهن ومن يفيدونهم لكان خيرا، ولذلك خير للإنسان في هذه الأيام أن يلازم العزلة ما لم يجد مجالا لمخالطة الناشئة التي ينتفع بها أو ينفعها.

فصول (**والأكل**) يبحث عن كل ما لذ وطاب، لا يقتصر علىٰ ما يستعين به علىٰ طاعة الله، يكثر من الأكل فوق اللازم.

وفضول (**النوم**) والله المستعان يقضي أكثر أوقاته في النوم، وقد قيل: إن بعض البطالين في هـٰذه الأيام يكثر من العمل في الليل، ويضبط ساعته علىٰ الساعة السابعة صباحا، لأن لا يفوته الدوام، ليس له هم في صلاة الفجر، فضلا عن قيام الليل؛ بل المحافظة كلها علىٰ الدوام، وباقي الأوقات للنوم.

بعد فضول الأكل وفضول الشرب وفضول المخالطة وفضول كل شر ينهي ذلك بالنوم الطويل الذي يؤدي إلىٰ ترك صلاة الفجر، يتعمَّد ذلك، هكذا قلنا عدة مرات شباب وصل بهم الترف إلىٰ هـٰذه الدرجة ، نسأل الله لنا ولهم العافية والتوبة النصوح.

(**فإن هـٰذه الفضولَ**) التي تقدم ذكرها (**تستحيلُ آلامًا وغمومًا**) يوما ما يكبر في السِّن، فيجد أنَّه أضاع شبابه في فضول المخالطة وفضول النظر وفضول الكلام وفضول النوم فيجده آلاما وغموما؛ ولـٰكن إن

كان ذلك يسبب له التوبة والرجوع إلىٰ الله فنعم الألم ونعم الحزن ونعم الهم والغم إن كانت النتيجة التوبة والإنابة؛ لـٰكن إن كان لا يشعر بذلك فيستمر في ذلك فيبقىٰ حياته في هم وغم (**تستحيلُ آلامًا وغمومًا، وهمومًا في القلب، تحصُره، وتحبِسه، وتضيِّقهُ، ويتعذَّبُ بها**) لا يجد من نفسه انشراحا، كيف ينشرح باله وقد أعرض عن الله وعن ذكر الله وعن الكلام النافع والنظر النافع والاستمتاع النافع، من أين له انشراح الصدر.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: (**بل غالِبُ عذابِ الدُّنيا والآخرة منها**) من هـٰذه الفضولات، (**فلا إلـٰه إلا اللهُ ما أضيقُ صدَر مَن ضرب في كل آفةٍ من هـٰذه الآفات بسهم**) ضرب بسهم من فضول النظر وفضول الكلام وفضول الاستماع.. جمع هذه الأشياء كلها، (**فلا إلـٰه إلا اللهُ ما أضيقُ صدَر مَن ضرب في كل آفةٍ من هـٰذه الآفات بسهم وما أنكَدَ عيشَه، وما أسوأ حاله، وما أشدَّ حصرَ قلبه**)، وبالمقابل (**ولا إلـٰه إلا الله، ما أنعمَ عيشَ مَنْ ضرب في كل خَصلةٍ من تلك الخصال المحمودة**) الإنابة إلىٰ الله والإحسان إلىٰ عباد الله إلىٰ غير ذلك من الخصال المحمودة التي تقدم ذكرها (**وكانت همتُّه دائرةً عليها**) علىٰ هـٰذه الخصال، مشغول بها (**حائمةً حولها**) حول تلك الخصال بين فكر وعطاء وإيمان وتفكر في كلام الله وغير ذلك (**فلهـٰذا نصيب وافر مِنْ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾[1]**) هم في نعيم الدنيا قبل نعيم الآخرة (**ولذلك نصيب وافر من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾[2]**) في جحيم الدُّنيا قبل جحيم الآخرة (**وبينهما مراتبُ متفاوتة لا يُحصيها إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.**) ولقد ذكرتُ لكم الكتب التي يتوسَّع فيها العلامة ابن القيم في هـٰذا الخصال فتجد تلك الخصال المحمودة ويعو إليها ويرغب فيها، ويعدد فيها تلك الخصال المذمومة ويحذر منها رحمه الله.

(**والمقصود: أن رسولَ الله ﷺ كان أكملَ الخلق في كلِّ صفة يحصُل بها انشراحُ الصدر**) في جميع هـٰذه الخصال (**واتِّساعُ القلب، وقُرَّةُ العين، وحياةُ الروح، فهو أكملُ الخلق فِىٰ هـٰذا الشَّرح والحياة، وقُرَّةِ العين مع ما خُصَّ به من الشَّرح الحِسِّي**) حيث ربطه الله الشرح الحسي: حسن الخلق، البشاشة، وحسن

---

(١) سورة: الانفطار، الآية (١٣).

(٢) سورة: الانفطار، الآية (١٤).

المخالطة، وحسن المعاشرة لعباد الله، (وأكملُ الخلق متابعة له، أكملُهم انشراحًا ولذَّة وقُرَّة عين، وعلىٰ حسب متابعته ينالُ العبد من انشراح صدره وقُرّة عينه، ولذَّة روحه ما ينال)، لا ينال الإنسان هٰذه المعاني إلَّا باتباع رسول الله ﷺ، كما تقدم أن لا إلـٰه إلا الله وإخلاص العبادة لله وحده لابدّ أن ينضم إلىٰ ذلك شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله، وأن يكون معنىٰ ذلك متابعته والتأسِّي به، وأن تعبد الله بما جاء هٰذا النبي الكريم –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– (فهو ﷺ في ذُروة الكمال مِن شرح الصَّدر، ورفع الذِكْر ووضع الوِزْر) وقد رفع الله ذكره، لا يتم إسلام المرء بذكر الله وحده إلَّا بذكره –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–، فلا تصح صلاتك بذكر الله وحده إلا أن تذكر مع ذلك رسول الله ﷺ، فلا تصحّ صلاتك، أذانك، وإقامتك أفضل العبادات إلا أن يذكر رسول الله ﷺ مع ذكر الله وقد رفع الله ذكره، كل ذلك شريطة أن تكون محبتك له ﷺ بأنه عبد الله ورسوله أما تقدير رسول الله –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– واحترامه بكونه عبقريا، كما يفعل ذلك بعض الكتّاب، أو يحب ذاته المحمدية بكونه عظيما دون أن يشهد برسالته فإن ذلك لا يجدي؛ إذ لا يوجد من يحب لذاته إلا الله ومن يعظم لذاته إلَّا الله، ومن يحب ويخاف ويعظم لذاته لا يوجد إلا رب العالمين، رسول الله محبته شعبة من شعب الإيمان شريطة أن تحبه لأنه عبد الله ورسوله وأنتم تعلمون أن محبة أبي طالب كانت محبة ذاتية شخصية قرابيّة لم تفده الفائدة المطلوبة، لذلك يجب أن يحب الرّسول –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– للمعاني الإسلامية، ثم اتباع شرعه وهدية، وأن لا تعبد الله بما جاء به هٰذا النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال العلامة ابن القيم: (ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتِّباعه .. والله المستعانُ.

وهكذا لأتباعه نصيبٌ من حفظ الله لهم، وعصمتِهِ إياهم) هٰذه هي معاني المعيَّة الخاصَّة (ودفاعِه عنهم) إن الله ﷻ يدافع عن الذين آمنوا واتبعوا الرّسول ﷺ واتبعوا شرعه وطبَّقوا شريعته، وإن كان قد يبتليه وأن يسلِّط عليه أعداءه يجب أن يعلم المؤمن إذا دافع عنه ونصره وأيده أن ذلك فضل منه سبحانه، وإن ابتلاه وسلّط عليه أعداءه وخصومه وأوذي أن يعلم أن ذلك عدل منه ﷻ، وفي كلتا الحالتين يجب أن يحقّق العبودية، لتحقيق العبودية أن توافق بلا تسلط أن توافق إرادتك إرادة

معبودك وهو الله، لا تحب إلا ما يحبه، ولا تكره إلا ما يكره سبحانه، لا تحب من الأعمال إلا ما يحبه سبحانه، ولا تكره إلا ما يكرهه ربك ومولاك بهٰذا تحقق منىٰ العبودية، وبالله التوفيق وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم.